الطابع العلمي في التعليم الحديث[1]

في مثل هذا الموقف الجليل تتبادر الى الذهن مسائل جمة تمضّ العقل وتقضّ المضجع الوثير وتستولي عليه حيرة فكرية تخط في عرض الفضاء علامة استفهام كبيرة

***

ايها المحفل الكريم : انقضى القرن التاسع عشر وانقضى بانقضائه عهد التفاؤل والتثبت . وحلّ القرن العشرون فاذا هو خيبة للآمال تنطوي على حيرة فلسفية وقلق اجتماعي. كشف علماء القرن التاسع عشر عن طائفة من نواميس الكون وحقائق العلم فبنوا عليها فلسفة ميكانيكية مادية ترى في هذه النواميس وتلك الحقائق كلمة الطبيعة الأخيرة . وشيّدوا على تاجها مجتمعاً يحسب التحكم والانكار وابن البشر حضارة وثقافة . وانطلق القرن العشرون من عالم الغيب يحمل في طياته سرّ الانقلاب . ففي الآراء العلمية تحوّل . وفي العقائد الاجتماعية تطوّر . وفي النفس الانسانية قلق واضطراب . لقد أنزلنا الآلة منزل المعبودات . وبتنا نحسب كلّ تحوّل سريع ارتقاء . ورحنا نعتقد أن كلّ حركة دليل على الحياة . على ان الذين يستطيعون ان يخلوا الى انفسهم في هذا الاصطخاب الفكري الشامل والاندفاع النفسي المتهور يقولون في روية ودعة : لن يكون الارتقاء حركة سريعة فقط . انما هو حركة في جهة معيّنة . والحركة في جهة معيّنة تقتضي غرضاً . فما هو غرضنا ؟

هذا هو السؤال ! انطلب المزيد من القوانين الاجتماعية والسياسية ام نرغب في تقليلها ؟ أإلى توسيع نطاق الحرية نرمي في مساعينا أم الى تضييقه ؟ هل نجد السعادة في الحياة الحرّة والعودة الى احضان الطبيعة ام نحن على خطإ اذا طلبنا الحياة السعيدة على الاطلاق ؟ هل نكبت العواطف ونخضعها لأحكام العقل والضمير فنرتقي على اخضاعها الى ذرى التقشف ، او نقبل على آداب الحيوانات الحرة في الحقل الطلق رغبة في اطلاق الحرية للنفس في التعبير عن خوالجها ؟ أنحب كل انسان مع السيد المسيح أم نقضي مع نيتشه على كل ضعيف قائلين قوله بأن المسيحية دين المستضعفين ؟ أنذهب مع الذاهبين الى أن هدم الدمقراطية سبيل الخلاص للحضارة ، وأن صوت الشعب انما هو صوت الشيطان ، ام تنضمّ الى القائلين بأن الدمقراطية ثمرة من ثمار الارتقاء العلمي الصناعي لا تفنى الا بفنائه ؟ هل العلم الطبيعي

(١) نص الخطبة التي القاها رئيس تحرير هذه المجلة الاستاذ فؤاد صروف في الحفلة السنوية لجمعية تهذيب الشبيبة السورية ببيروت في ٧ يونيو الماضي

من مقومات العمران او هو خطر عليه لأنهُ يزيد قوة الانسان من غير أن يولد في نفسه حكمة استعمالها ؟ هل يسيطر الانسان على القوى التي اطلقها او تسيطر هي عليه فتستعبده ؟

هذه هي المسائل التي تعضّ العقل المصري ، ونحن في محاولة الاجابة عنها نسري في ظلمات من فوقها ظلمات من تحتها ظلمات يتيه العقل البشري في بيدائها !

***

هكذا خاطبت نفسي لما شرفتني هذه الجمعية الكريمة بالدعوة للخطابة في حفلتها السنوية . وقضيت اياماً اقلب هذه المسائل في ذهني لعلي اهتدي في احداها الى قبس من النور . وإني لكذلك اعاني آلام هذه الحيرة ، طرأ على بالي للمرة الأولى ، ان الجمعية « جمعية تهذيب الشبيبة » فضحكت من غفلتي . وكأن الحيرة التي كانت مستولية عليّ قد استحكمت مني ، فأخذت من جديد اسائل نفسي :

ما الغرض من التهذيب ؟ لماذا تنفق الأموال ، ونشيّد المعاهد ، ولتدرّ اكف المحسنين ، وتنظم الدوائر والصفوف ، ونقضي الأعوام نذوق فيها صنوف الآلام العقلية ، ثم نخرج من المدرسة ونحن ندرك — اذا كنا على شيء من العقل — مدى جهلنا ؟

ما الغاية القصوى التي يبغيها الطالب وأبو الطالب ؟ بل ما الغرض الذي يرمي اليه الرئيس والأستاذ ؟ ألكسب يبغي الأول العلم ام للزينة ام للقوة ام للمقام الاجتماعي ام للنفع العام ؟ وهل يطلبهُ الثاني لتقويم الاخلاق او لاخراج موظفين للحكومة او لاعداد جنود للوطن او معلمين للمدارس او تلاميذ يذيعون فكرة ويروجون لدعوة ؟

من الواضح ان منوال التعليم يختلف باختلاف الغرض المقصود منهُ . ما أكثر الأغراض وما اعظم الاختلاف بينها ! فالمربي الانكليزي المشهور — الدكتور ارنولد — كان يرى « الوداعة العقلية » غاية التعليم القصوى — وهي صفة لن تستطيع الثور عليها في « رجل ارسطو العالي » مهما يجهدك البحث . ان غرض نيتشه يختلف اختلافاً شاسعاً عن غرض المعلمين المسيحيين . فهو يرى « للقوة » وهم يرون « للمحبة »

ثم ان الألمان والايطاليين واليابانيين يرون في كل طالب جنديًّا يناضل في سبيل « الوطن » والأميركيين يطلبون « النجاح العملي » والانكليز الدقة في تأدية الواجب على حساب الذكاء . حتى اذا اتفق الباحثون على العناصر التي يجب ان يشتمل عليها الخلق الكامل اختلفوا في نسبة هذه العناصر بعضها الى بعض : فالواحد يقدم الشجاعة والاقدام على الحرص . والثاني يطنب في القوة العقلية . والثالث يضع الدعة واللطف في المقام الأول . والرابع يضع الواجب نحو الامة امام الواجب نحو الذات . فعلينا ان نعرف الغرض الذي نرمي

اليه معرفة واضحة الحدود والمعالم لكي تتمكن من السعي الى تحقيقه سعياً مجدياً

كان النشاط العقلي والجسدي اظهر الصفات في رجل اليونان الامثل . وكان الخمول الجسدي والتفكير الذي تغلب عليه صفة التأمل الهادئ اظهر الصفات في رجل الصين الامثل . فكان السياسي اليوناني اذا غُلب على امره في بلده وطرد منهُ لا ينزل على حكم الدهر عليه، بل يعزم حفنة من الشرَّدين امثاله فيصلي الجماعة التي اذلته وطردته نار الحرب . اما المثقفون الصينيون فكانوا اميل الى التأمل والتشكيك والى التمتع بمجالي الجمال تمتعاً هادئاً . وكان موظفهم اذا طرد من منصبه ينطلق الى عزلة على قمة جبل لينظم اشعاراً في مسرَّات الحياة القروية

فالتعليم الصيني انتج «استقراراً» ولعلَّ هذا ما ينتظر من تعليم قائم على الريبة والشك . اما التعليم اليوناني فانتج تحوُّلاً وحرباً لان المعتقدات التي نعتقد صحتها بكل جوارحنا ونؤيدها بكل قوانا لا تحملنا على الاستقرار بل تدفعنا الى الكفاح في سبيلها . لذلك قضت الحضارة اليونانية على نفسها بايدي ابنائها . اما الحضارة الصينية فاستقرت على ما هي عليه آلاف السنين ولا تزال تنتظر من يقضي عليها من الغرب او من ابنائها المتقنين باساليب الغرب

وكان التعليم اليوناني جرثومة الحضارة الغربية الحديثة حملها الغربُ بعدما تعهدوها بكل اساليب العناية والنماء ، حتى اتصلت اخيراً باليابان — جارة الصين — فجعلها اليابانيون اساساً لنهضتهم الحديثة . ولكنهم جعلوا « المجد القومي » غرضاً لهذا التعليم الديناميّ فاخضعوا كل قوى التلميذ العقلية والجسدية لتمجيد الميكادو وتعظيم الوطن والاستماتة في سبيله

وكلا الموقفين — اي كلا التعليمين — تعليم الصينيين في الطرف الواحد — وتعليم اليابانيين في الطرف الآخر خطر على العمران . فالاول كان يتمادى في التشكيك والريبة حتى يفضيا به الى الجمود . والثاني يتمادى في التحكم والايمان بمحكمه وقوته حتى يصبح ابناؤهُ وهم كالقنابل المنطلقة . اما والارتقاء المتزن هو غرض الحياة الاسمى فالتمادي في التشكيك المفضي الى الجمود لا يجدي نفعاً في ميدانها . اما وقد اصبح العمران — بفضل العلم والصناعة — معقَّد التركيب محكم الترابط دقيق الاحساس ، فالتمادي في التحكم الذي يجعل الثورة والحرب سبيل الارتقاء الوحيد ، مبعثُ خطير يهدد الحضارة بالانقراض

ان غرض التعليم ايها السادة يجب ان يكون: «الايمان بان الحصول على المعرفة مستطاع الى حدٍّ ما ، ولكن بصعوبة كل الصعوبة . وانَّ جانباً كبيراً مما نعرفهُ او نحسبهُ معرفة يحتمل ان يكون خاطئاً . وان هذه الاخطاء تصحح بالاختبار والامتحان — كذلك علينا ان نعلِّم المتعلم انهُ حين ينطلق في عمله اليومي لتحقيق رغائبه — يجب ان يكون بالغ الحذر حيث يحتمل ان يكون الخطأ الضئيل باعثاً على ضرر كبير . ومع ذلك لا بدَّ من ان تكون رغائبنا

وغرائزنا — اساساً لكل اعمالنا . وهذه الحالة العقلية — حالة الحذر الدائم واليقظة المستمرة لحفظ التوازن بين ما تقضي به رغائبنا وما يمليه عقلنا — حالة دقيقة كل الدقة . انها تحتاج الى اعظم جانب من الثقافة العقلية والرياضة النفسية — ولكنها على دقتها غير متعذرة على من يرضى ان يبذل في سبيلها جهداً خالصاً . هي في الواقع الطريقة العلمية بل هي صميم الطابع العلمي . ان المعرفة — ككل الامور الطيبة في الحياة — صعبة المنال ولكن منالها ممكن . اما التحكم فيعني الصعوبة . واما الشك فينكر الامكان »

***

من حطيم الحياة الاقطاعية في القرون الوسطى ، وبفعل الثورة الفرنسية والثورة الصناعية نشأت اكثر الدول الاوربية الحديثة وعينت حدودها واتصلت ثقافاتها . وانك اذا رجعت الى الصفات التي تمتاز بها هذه الدول الجديدة عن امم العالم القديم رأيت الشعور القومي — سواء في السياسة او في الثقافة — اظهرها مكاناً وابعدها اثراً

اما « القومية » ايها السادة فاسبابها والبواعث عليها بعيدة الغور في الطبيعة البشرية . فالانسان بطبعه ميال الى الخوف من كل غريب عنه ويسعى الى اذيته اذا استطاع مبادرةً ان يؤذي هو اولاً . وهو كذلك اجتماعي ولكنهُ يؤثر الطوائف الصغيرة لان غيرتهُ من كل فرد خارج عن تلك الطائفة وخوفهُ منهُ — وخصوصاً اذا كان ذلك « الخارج » يختلف لوناً او لغة اوقامة — فطرة فيه لا تزال عالقة بنفسه من ايام التناحر على البقاء الاولى

هذا هو منشأ « القومية » التي يرجع اليها جانب كبير من تاريخ النزاع بين الامم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ولكن بدلاً من ان يعمد المفكرون والمعلمون والفلاسفة الى صقل هذه الميول وتثقيفها واخضاعها لاحكام العقل اي بدلاً من ان يحاولوا طبع التعليم بالطابع العلمي الذي اشرت اليه عمدوا الى استثارتها بكل فنون الاثارة الشعرية والنثرية

نزل المفكر من برجه العاجي المنيف الذي كان يقطنهُ في القرون الوسطى وشقّ لهُ طريقاً في ميدان العامة ، واختلط بهم ، فالتهبت في صدره الشهوات التي تلتهب في صدورهم فاستعمل مقدرتهُ العقلية في استنباط العلل التاريخية والفلسفية لتسويغ هذه الشهوات وتبريرها فخلع عليها ثوباً زاهياً من المنطق الخلاَّب والفلسفة الاخَّاذة ، والحجد المثير سائراً وراء الجمهور بدلاً من ان يقودهُ ، خائناً بذلك الامانة التي في عنقه ، امانة الترفع عن امور الدنيا والارشاد الى مواطن المثل العليا . ففي انكلترا ينادي كبلنغ الشعوب البيضاء « احملوا حمل الرجل الابيض » أي خذوا على عاتقكم تمدين الشعوب غير البيضاء — اي استعمروها ! وفي اميركا تخترع الفلسفة العملية التي تحدّد العمل الادبي السامي بالعمل الذي يمكننا من الفوز في ميدان

التناحر في بيئة معادية . وفي المانيا ينادي شوبنهور ان الجانب من جوانب النفس الذي يقرّر ما هو « الصالح» انما هو «ارادة الحياة» ويدعوه نيتشه« ارادة السيطرة». ويتفقون جميعاً على أن «ادبية» كل عمل تقاس بمقياس صلاحه لقضاء المأرب منهُ ، وان الآداب الوحيدة هي الآداب التي تناسب مقتضى الحال

اتعجبون اذاً من ان يقوم في مجتمع هؤلاء روّاده المفكرون نزاع على التوسع والسيطرة تدعمهُ حجج تاريخية وفلسفية وبيولوجية ؟ اتعجبون اذ ترون روح الوطنية يلهب بكل وسائل التعليم والنشر حتى يكتنسح صدور الناس وحتى تصبح اوربا وكأنها على فوهة بركان يتحفز للثوران ! اتعجبون من قيام طبقات الشعوب بعضها على بعضها في سبيل « ارادة الحياة » ! لقد اصبح الرجل لا يقتنع بان شرف وطنه في حفظ ملكه او برلمانه . انهُ تعلم ان يشعر ان واجبهُ يحتم عليه ان يدافع دون قومه وان المجد كلَّ المجد في ذلك وان العار كلَّ العار في التواني عنهُ . واذا الانكليزي يقول ان الله تجلى اولاً للامة الانكليزية . واذا غليوم يعتقد ويصرّح « ان لالمانيا مكانة خاصة في عقل العزة الالهية » . واذا مازيني ينادي بان «ايطاليا دين». واذا الشعور القومي يتسم بسمة العقيدة الروحية . واذا الحرب لا تنشب بين جيشين مرتزقين ولكنها نزاع وتناحر بين الامم والحضارات !

ايها السادة : اني اؤمن بالوطنية والقومية . اني اؤمن بان ارجلنا يجب أن تغرس في بلادنا وتستمدّ عصير الحياة من ترابها . ولكنني اؤمن كذلك بالانسانية . اؤمن بان اعيننا الروحية يجب أن ترتفع حتى تستشرف العالم . والمعلم الحكيم في نظري ، سواء اكان مدرساً او صحافيًّا او خطيباً او مؤلفاً او واعظاً ، هو من يصقل العواطف الجياشة التي تجري في صدور مواطنيه من غير ان يقمعها ؟ هو من يمنح مواطنيه عيوناً عقلية يرون بها أن عواطف الامم الاخرى وتقاليدها ليست مناقضة لعواطفهم وتقاليدهم . لا مندوحة عن استمرار الفروق الشعبية القائمة على الوراثة والبيئة واما ما بني فوق هذه الفروق بيد التعصب والجهل فيجب ان يندثر . ومهمة المعلم ان يدثرهُ . وغرض التعليم القويم أن يقوّض اركانهُ . ان في عالم الروح مستوًى ، اذا بلغتهُ الشعوب عاشت فيه عيشة اخاء ووئام . فوق هذا المستوى تحتفظ كل امةٍ بمقومات شخصيتها . ولكنها تدرك اذ ذاك ان هذه المقومات ، وان اختلفت عن مقومات الامم الاخرى ، لا تناقضها . لان الاختلاف في ميدان العلم الصحيح مقبولٌ ولكن التناقض ممنوع . ان للارواح السامية مقامين: وطنها الارضيّ والمدينةَ العليا . في الاول نحن ضيوف على رحيل. واما الثانية فنحن بناؤوها. فلا الاسرة تقدّم على الروح ولا الوطن. الروح هو النور . فارفعه فوق الاعاصير. ولتمزّق السُّحُب التي تغشاه

ولين مدينة شامخة منيعة تتراجع الاضداد عن جدرانها

فانا ازعم ايها السيدات والسادة ان تعليماً غرضه إحكام التوازن بين أحكام العقل ونوازع النفس طريق — على وعورته — ممهد للسمو في نفس الفتى، وللسلام بين طوائف الامة، وبين امم الارض جمعاء . بل اني ازعم ان هذه الحضارة التي تنعم بحسناتها الكثيرة — وان كنا لا نتغر لها بعض سيئاتها — تستهدف الى خطرين عظيمين : كلٌّ منهما يستطيع القضاء عليها، اذا لم نعمد الى تطبيع نفوسنا ونفوس ابنائنا بهذا الطابع العلمي

اما الخطر الاول فهو حرب طاحنة لا تبقي ولا تذر ، تكون البواعث عليها رغبة في الدفاع عن شرف الوطن يتغنى بها الشعراء وتمهيد الطريق لتوسعه وسيطرته ينادي به الساسيون ، وفوز في ميدان التنازع على البقاء يذهب اليه الفلاسفة

وقد غاب عنهم ايها السادة ان المستنبطات العلمية الحديثة قد ربطت بين شعوب الارض حتى صارت وكأنها امة واحدة . فالفاظ التوسع والتنازع والسيطرة يجب ألاَّ تكون في قاموسهم . ان الفاجعة التي تحدث في القطب الشمالي أصبحت بفضل المخاطبات اللاسلكية وكأنها حادثة في باريس. فانا اجزع مع زوجة الرائد وابنته لما يحفه به من الخطر ، وانا اجل شجاعته واقدامه في اقتحام عناصر الطبيعة حبًّا بالكشف عن مجهول فيها . وهذا الجزع من جهة والاجلال من جهة اخرى قوة توحّد بين عقولنا ونفوسنا لحظة من الزمان فنرتفع على أجنحتهما محلقين فوق حدود البلدان وفروق الاجناس

لقد غاب عنهم ان اتحاد الروح ، وانتصارات العقل ، أعظم شأناً وانبل قصداً من اتحاد الفؤاد وبطولة الاجناد

لقد غاب عنهم ان المؤمنين بالعلم والجارين على أحكامه ، والمتنعمين بآثاره، اخوة عالية عظيمة تعيش على مستوى أعلى وأنبل من مستوى الشرف الوطني الخاص والتوسع القومي الخاص والسيطرة الثقافية الخاصة — ألا وهو مستوى الشرف الانساني والتوسع الانساني والثقافة العامة

اتيحت لي أيها السادة زيارة ردهة المجد النيويوركية من بضع سنوات فوجدت فيها انصاباً لأكثر من ستين اميركيًّا لم أجد بينها الا انصاب ثلاثة من القوّاد ! وقد كانت أمنيتي — ولا تزال — ان استيقظ كلَّ يوم لأرى عدد العلماء والمستنبطين في الارض وقد اربى على عدد القواد ! لأنهُ اذا لم يقضِ العلم على الحرب قضت الحرب على العمران

***

أما الخطر الثاني فهو استهداف العمران الى افلاس روحي أعظم خطراً على مصير العمران من شبوب نيران الحروب بل يكون هو مبعث الحروب ومذكيها

واظهر مظاهر هذا التخلف المؤيد بالارقام عن حضور الاجتماعات الروحية وعدم المبالاة بنواهي الدين الأدبية والاقرار بالعجز عن الوصول الى عقيدة تطمئن اليها النفس وجعل الآلة السريعة معبوداً يصلي لهُ ويسجد ، واهمال المثل الروحية العليا واستبدالها بما يكفي الشهوات العارضة واستنباط فلسفات لتحلّ محلّ الدين . وكل ما يقال فيها أنها فلسفات

ولعلّ هذا التقلقل في مقام الدين ناجم الى حد بعيد عن طول النزاع بين العلم والدين على أمور هي من اختصاص الاول دون الثاني . فلما فاز العلم في اثباتها على خصومهِ ضعف مقام الدين في عقول الذين يظنون خطأً أن ما نقض هو الدين في ذاته — مع ان المنقوض انما هو علم قديم حلّ محلهُ علم جديد ، كما حلّ علم اليوم محلّ علم الأمس وكما ينتظر أن يحلّ علم الغد محل علم اليوم . أما الدين فان في صميمهِ شيئاً خالداً مستقلاً عن تطوّر المعرفة الانسانية . ليثبت علم الهيئة أن الأرض ليست مركز الكون . وليثبت علم الحياة ان الانسان ليس سيد المخلوقات . وليثبت علم النفس الجديد ان مصدر الوعي الانساني وملابساتهِ انما هو تيارات العقل الباطن المكبوتة . ليثبتوا ذلك كلّهُ فلا يضير هذا الاثبات الدين في شيء . بل ان تسليم رجال الدين بهذه الحقائق ، وهم يجلون لنا في مرآتهم العلوية صورة المثل الروحي الاعلى ، يجعل الاساس الذي تستمد منهُ تعاليم الانبياء أساساً معقولاً يقصب الاقناع غصباً

فأنا أزعم أيها السادة ان التعليم الذي غرضهُ ترسيخ النزعة العلمية في عقول الطلاب يقترب بهم جدّ الاقتراب من صميم الدين — من المثل الروحي الاعلى . قد يكون الافلاس الروحي فاشياً بين معظم طبقات الناس ولكني لا أرى أثراً لهُ بين طائفة العلماء المحققين . ألم تروا الى مِلِكَن يقول : حددوا «المادة» وأنا اتكفل بتحديد «الروح» . هذا العالم الطبيعي الذي قاس مقدار الشحنة الكهربائية على الالكترون والذي اكتشف اشعة تفوق اشعة اكس مئات الاضعاف في قوة اختراقها للمواد يعترف في دعة صحيحة انهُ لا يدري ما هي المادة . ومِلِكَن في نظرته هذه يمثل طائفة كبيرة من علماء العصر

أما كان صميم الدين ولا يزال علاقة الانسان بربهِ من جهة وعلاقتهِ بجيرانهِ من جهة أخرى ؟ وهل في الكون نظرة ابعث على الجلال والاحترام للخالق المبدع من نظرة العالم الذي يدرك شيئاً من أسرار الكون ويدرك قصر ادراكهِ هذا . أما صفات المتطبع بالطبع العلمي فهي الصفات الروحية المثلى : الصبر والصدق والانصاف والاخوة . أيفخر الانسان بقوتهِ قدرس ساعة واحد من علم الفلك يقنعه بضعفه . أيحتقر قدرته ؟ علّمهُ الكيمياء والطبيعة والطب والهندسة ! أيحسب نفسهُ سيداً يتيهُ على اخوانه كبراً فالطبع العلمي يعلمهُ ان الانسان

وحضاراته تزول وأما البحث عن الحق الخالد فعمل ابدي ازلي . فاذا كان روح الحق صميم الدين فرجال العلم اليوم رجال متدينون حقاً . والاكباب على البحث العلمي المجرد حباً بالكشف عن الحقيقة هو الظاهرة الروحية العصرية التي تقابل التقشف الديني في العصور الوسطى !

***

أبالعلم تحاول أن تبيد الحرب والعلم نفسه يبعثها ويغذيها ويصب على نارها زيتاً فيزيدها اشتعالاً واضطراماً أبالعلم تحاول أن تبيد الحرب ، والعلم يمدّ رجالها بالمدافع ، والدبابات ، والغازات ، والغواصات ، والطيارات ؟ ابالعلم تريد ان تحلّ مشاكل الانسانية والعلم يضع في أيدي أبنائه قوى تجعلهم في ذروة الآلهة وخمسة الشياطين ؟ ابالعلم تحاول ان تدفع الافلاس الروحي والعلم يبث في النفوس الشك ولا يعترف بيقين الا يقين الحواس ؟ أبالعلم تحاول ان تزيل المادية والحضارة الصناعية العلمية جذورها مادة وجذوعها مادة وفروعها مادة منطلقة في الفضاء ! قلّب صفحات الحرب الكبرى ! فكل الآلات التي أستطاع العقل العلمي ابداعها استعملت لغرض واحد هو التدمير والتقتيل . وفي مئات المعامل العلمية والمصانع ومجالس البحث الطبيعي والكيماوي أكبّ العلماء على أخضاع القوى لاطلاقها تدمر وتميت . عشرة ملايين من الجنود قتلوا في ميدانها . وثلاثة عشر مليوناً من السكان . وعشرون مليوناً من الجرحى . وثلاثة ملايين من الاسرى . وتسعة ملايين من الايتام . وخمسة ملايين من الارامل . وعشرة ملايين من المشرّدين . هذا هو علمك احتفظ به ، فانهُ بلاء على الانسانية لا دواء لادوائها !

هكذا يقول المعترضون !

اما القول بان العلم يبعث الحرب ويغذيها فخطأٌ في التفكير . العلم لا ينظر الى الحرب ولا الى السلم . فهو يعطينا يد الاعتداء ويد اخرى المفرقعات . يجهزنا من ناحية بأشعة اكس ووسائل الجراحة والمخدّرات الطبية ومن ناحية أخرى بالمدافع الرشاشة والغاز الخانق والمنيات . ولكن ما يجهزنا به العلم للتآلي السلمية يفوق اضعاف اضعاف ما يجهزنا به للافعال الحربية . المفرقعات تستعمل في الحرب للهدم والقتل ولكنها تستعمل في السلم في مئات المطالب العمرانية من حفر الانفاق الى شق الترع الى فتح الحاجز . والفولاذ لا ينحصر استعماله في صنع الاسنة والرماح بل هو يستعمل ايضاً في صنع المحاريث والخطوط الحديدية والسيارات والحصّادات ومئات الادوات اللازمة في الصناعة والزراعة . فالعلم محدّ نفسه لا يخدم اله الحرب دون اله السلم ، وانما يعود هذا الفرق الى نفوسنا ، وشهواتها ، واغراضها الادبية

السر هنا معروف واعراض اندائه مكشوفة : ان قوة الانسان قد سبقت حكمتهُ في احكام استعمالها . والواقع ان العلم لم يغيّر رغبات الانسان وانما مهّد لهُ طريق تنفيذها .

وهنا مكان التعليم الذي اقول بهِ . قد لا يقمع هذا التعليم رغبات الانسان وشهواته ونحن لا نريد ان نقمعها — ولكنهُ يصقلها — انهُ يخضعها لنواهي العقل — انهُ يحكم الاتزان بين ما تقضي هي بهِ وبين ما عليهِ العقل . وهذه هي الحكمة . فاذا كانت هذه الحكمة وليدة التعليم فارتقاء العلم وتعدد المستنبطات لا يكون الاَّ خيراً . والواقع انا لا نستطيع ان نسير بالحضارة الى اغراضها العليا من دون العلم . ان لهُ من الوجهة العقلية لذة لا تصدف عنها بسهولة بعد تذوقها . ومن الوجهة العملية غدا ضرورياً لكل اسباب العمل والراحة . والحق يقال انا قد وصلنا الى حالة لا تستطيع معها شعوب الدنيا ان تحتفظ بمستواها المعاشي الاَّ بترقية العلم وتوسيع نطاقهِ . ولكن مع هذا يجب ان يسير التعليم المطبوع بالطابع العلمي الذي يولد الحكمة في النفوس ويقيها من نزغات الشيطان

أما القائلون بأن الحضارة العلمية الصناعية حضارة مادية فيخطئون أيضاً

إن أساس الحضارة الغربية أساس روحاني : لقد أعترف كنفوشيوس حكيم الصين — وجاراه في ذلك طائفة كبيرة من الفلاسفة — بأن أدوات الحضارة لها أصل روحي . لأن الفكر مصدرها كلها . فانا لا أرى ان صورة زيتية من تصوير روفائيل مادية أكثر من لحن أبدعهُ بيتهوفن . أنا لا ارى ان سيارة صنعها فورد مادية أكثر من قصيدة نظمها شلي . أنا لا أرى ان ناطحة ولورث مادية أكثر من الهرم الكبير أو كنيسة نوتردام. أنا لا أرى مكتشفات مندل في الوراثة مادية أكثر من مؤلفات كانت . انها كلها ادوات لازمة للحضارة وقد أبدعها الذكاء البشري متصرفاً بالمادة والقوة تحقيقاً لحاجة من حاجات المعاش او تلبية لدافع داخلي يدفعهُ لتمثيل المثل الاسمى أو لاكفاء ميله الى البحث والتنقيب . لقد ألَّه الاقدمون بروميثيوس لانه أخذ النار من الآلهة ومنحها للبشر وقدموس لانهُ استنبط الكتابة . ألَّهوهما لانهما يمثلان تلك الشعلة الالهية في الانسان شعلة العقل المبدع الذي يستنبط الآلات والادوات ويبني بها العمران . اذن اين نضع علماءنا ومستنبطينا من غليليو الى نيوتن الى وط الى مورس الى بل الى اديصن الى ماركوني الى فورد . ولماذا نقول ان هؤلاء رواد عصر مادي وان بروميثيوس وقدموس الهان ؟ !

ثم ان طريقة الحضارة العلمية الصناعية هي طريقة روحانية . فالعلم يثقف العقول فيدنيها من القدس الاعلى لانهُ يجهزها بوسائل للبحث عن الحق الخفي . وهو كذلك يعلمنا الاَّ نقنط حين تحدق بنا المصاعب . لان العلم لا يتقدم الاَّ بالبحث الدقيق والصبر الجميل والتغلب على المصاعب . وكل خطوة يخطوها العالم الى الامام توقظ فيه ذلك الحبور الروحي الذي كان ينسب الى الحكماء الاقدمين حين تجلي الآلهة لهم . وأكثر عناصر العلم روحانية هو هذه الريبة في

كل شيء قبل تصديقه وهذه الشجاعة الادبية على الريبة قبل توافر الادلة على صحته. ولكنها ريبة مبدعة لا تنتهي عند نفسها بل هي خطوة مباركة في سبيل الاكتشاف والاستنباط والبناء[1]

ثم ان غرض الحضارة العلمية غرض روحاني . هو تحرير الناس من ربقة الاستعباد للقوى الطبيعية لان تقدم العلوم وما يبنى عليه من المخترعات والمستنبطات يوفر للجسم الراحة والرفاهة فيتحرر العقل وتتسع امام النفس آفاق المعرفة والفهم . ولكن اذا لم يبلغ الناس درجة من الحكمة تعلمهم كيف يقضون اوقات الفراغ، فالخوف كل الخوف عليهم أن يكون نصيبهم الضجر الذي لا يكون الا نصيب الغني الخامل أو المتغمس في الشهوات بعد الكلال

كل انسان يحتاج تعليمين : الاول يعلمنا كيف نرتزق . والثاني يعلمنا كيف نعيش . وهذان الغرضان لا يلتبسان في عقل الرجل المثقف تثقيفاً صحيحاً . كلٌّ منا — او اكثرنا على الاقل — يهمهُ ان يرتزق . وقد كان الناس في الزمن السابق يرتزقون في الحقل والدكان أو بالرياضة والتمرن في مخزن تاجر او مكتب محام او عيادة طبيب . اما وقد اتسع نطاق العلم وتعددت مطالب الحياة وتعقدت اساليبها فصرنا نفضل ان نختصر الطريق بالذهاب الى المدرسة او الكلية لنتعلم في بضع سنوات عملاً معيناً او حرفة خاصة . ولكن هذا يجب ألاّ يحجب عن بصيرتنا اننا بهذا نتعلم حرفة او تجارة . هذا هو التعليم الاول . وهو غير التعليم الذي لا بدَّ منهُ لنعرف كيف نعيش متى كفلنا اسباب الارتزاق الذي لا مندوحة عنهُ لكي نستمدَّ من الحياة اطيب اطايبها . والتعليم المطبوع بالطابع العلمي يمهد لنا السبيل الى ذلك ولو شغل الحياة بطولها . بل لا بدَّ لهُ من ان يشغل الحياة بطولها . لاننا نرتزق في وصف غرض التعليم : أن الحصول على المعرفة مستطاع الى حدٍّ ما ولكن بصعوبة كلّ الصعوبة . وان جانباً مما نعرفهُ او نحسبهُ معرفة يحتمل أن يكون خاطئاً . وان هذه الاخطاء تصحَّح بالاختبار والامتحان . ألا يشغل كلُّ هذا الحياة بطولها ؟ !

ايها السادة : لقد أبدعت الثورة الصناعية والثورة الفرنسية العجائب في عمراننا الحديث . انهما فتحتا أمام كل الطبقات في كل الشعوب ابواباً جديدة للعيش . وجعلتا الديمقراطية مثل الامم الاعلى . وحوّلتا الوطنية الى قوة عنيفة تكتسح صدور الشعوب

فالتطبع بالطابع العلمي في شعبتيه الاولى والثانية — لا مندوحة عنهُ لسير الديمقراطية السامية سيراً مرضياً . ولانشاء القومية الرشيدة التي تؤيد السلام . ولاعداد النفوس لاتقان وسائل الثورة الصناعية وتوسيع نطاقها والتمتع بفوائدها الروحية . هذا التعليم يمهد للاجيال المقبلة سبيل التفكير الصحيح ، والعمل المثمر ، والاخاء العام

(١) هذا الرأي في الحضارة الغربية هو رأي الحكيم الصيني المعاصر هوشه